قصة أديب

كيف كنت أنظر الى الأدب من خمسين سنة ؟

لا بد لي من أن أطوي هذه السنين الخمسين حتى أستطيع أن أقابل بين الأفق الضيق الذي كان يعيش فيه الأدب وبين الأفق الرحيب الذي تقلب في أعطافه في خلال نصف قرن ، ماذا كنا نفهم من الأدب في تلك الأيام البعيدة ، اني مضطر الى الاعتراف بأن المدرسة التي نشأت فيها لم تخلق فيّ ميلاً إلى أدبنا ، وإذا كنا قد أصبنا من هذا الأدب شيئاً يسيراً فان هذا الشيء قد أفسد أذواقنا ولولا صديق في المدرسة تولّى تقويم الذوق لما كان لي في الأدب كثير أو قليل ، وعلى الرغم من هذا هل كنا نفهم الأدب على حقيقته ، على الوجه الذي نفهمه اليوم .

لقد فتحنا أعيننا على دواوين طائفة من الشعراء ، وعلى كتب فريق من الكتّاب ، ولكن ماذا كنا نفهم من شعر أولئك الشعراء وكتابة أولئك الكتّاب ، كنا نعنى بلفظ من الألفاظ أو بجملة من الجمل أو بتركيب من التراكيب ، فكنا ندوّن هذا كله في دفاترنا ونتفاوض فيه في مجالسنا ، فكان القالب الذي تفرغ فيه الفكرة شغلنا الشاغل ، ولم ننظر الى ما وراء القالب من الصور ، ولا كنا ندرك من محاسن الصور أو من مقابحها شيئاً ، فكان يغلب علينا التغني ببيت من الشعر فيه لفظ يستميل أذواقنا اليه أو التغني بجملة من الجمل فيها نغم تنغش مسامعنا اليه ، كنا ننظر الى الظاهر ولا نهتم بالباطن ، واذا قابلنا بين هذه النظرة الى الأدب وبين نظرتنا الى الحياة بأجمعها في ذلك العصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجدنا أن التناسب مستحكم بين النظرتين ، كانت حياتنا بسيطة في مجامع أوضاعها لأن العصر الذي عشنا فيه كانت البساطة غالبة عليه ، فمشاكل السياسة لم تنصرف اليها إلا فئة قليلة من الناس ، ومشاكل العالم لم يعنَ بها إلا نفر قليل من الخلق ، والعلم كان ضيّق الآفاق فلم يتحدث الناس في مجالسهم بالصواريخ وإرسال الأقمار ، كانت أسرار الفضاء مغلقة الأبواب والمذاهب الاجتماعية لم يكن لها صدى في أحاديثنا ، فكنا لا نعرف شيئاً عن الاشتراكية أو الشيوعية أو التقدمية أو مذهب أهل الرجعة ، والمرأة كانت قابعة في بيتها ، لم تزاحم الرجل في الحياة العامة ولم تخلق له هذه المشكلة التي قد نسميها بعد قليل من السنين : مشكلة مطالبة الرجل بحقوقه . أقول هذا بالنسبة الينا معاشر الطلاب الذين خرجنا من مدارسنا في أواخر سنة ١٩١٣ ولا أقول هذا القول بالنسبة الى جماعة كانوا يعنون بالبحث عن مشاكل السياسة والاجتماع وما شاكلها .

لم أشعر قبل خمسين سنة بأني أعيش في عالم متحرك يجرفه تيّار لا يستطيع أن يقف في وجهه ، فكأني كنت أؤمن بثبات الحياة على نحو أولئك المهندسين الذين بنوا هياكل المصريين والإغريق دون أن يفطنوا الى كرور الأيام ، كان شعورهم بثبات الحياة شديداً ، فلم تتغير شروط الحياة في عصورهم بسرعة تمكنهم من الإحساس بالاختلافات التي تقع من سنة الى سنة ومن بطن الى بطن ، من هذه الناحية نجد أن القرن التاسع عشر أقوى فطنة الى هذا التغير ، فقد كثرت الاختراعات فيه وفي العصر الذي نعيش فيه ، فكل شيء في الحياة قد تغير وانقلب ، وقد تبعت انقلابات المادة انقلابات ثانية في آفاق الاجتماع والاقتصاد ، فالمجتمع في يومنا هذا بعيد النظر في بنيانه على أسس جديدة ، ان طائفة من الأفكار التي كانت تدخل في مذاهب الفلاسفة وحدهم أخذت تدخل في أذهان الناس عامة ، فقد انحدرت عن آفاقها العالية الى آفاق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقرب والفن والأدب لا يسعها تجاهل هذه الأفكار الجديدة والمذاهب الحديثة ، من هذه الأفكار والمذاهب فكرة التقدم ومذهب التطور ، فقد كان روح الابتداع والاختراع من خصائص العلماء وحدهم ، أما اليوم فان الكتّاب يهتمون بالابتداع والاختراع في كتاباتهم على نحو العلماء .

كل هذا كنت أجهله قبل خمسين سنة ، كانت حياتنا بسيطة والتماثل بين أدبنا وبين حياتنا كان وثيق الأواصر ، على قدر نظرتنا الى ظواهر الحياة كانت نظرتنا الى ظواهر الأدب ، كنا ننظر في الأدب الى العرض لا الى الجوهر ، الى الكأس لا الى ما ملئت به هذه الكأس ، وما أشد الفرق بين النظرتين ، نظرة الى سطوح الأمور ونظرة الى الأعماق ، ومن سطوح الأمور الإفراط في الاهتمام بالمآكل والمشارب والملابس ، الإفراط في الاهتمام بمسرات الحياة والإهمال لمشاكلها والتنقيب عن أسرارها وغاياتها ومذاهبها ، فكما شغلتنا ظواهر الحياة عن بواطنها فكذلك شغلتنا ألوان الصورة في الأدب عن جوهر الصورة .

ولكن هل طالت نظرتنا الى الحياة والى الأدب على هذا الشكل ، لقد ودّعنا سنة ١٩١٣ واستقبلنا الحرب الكبرى الأولى ، ثم وضعت الحرب أوزارها فاستقبلنا عهداً جديداً بالنسبة الينا معاشر الشباب ، استقبلنا دولة استفاضت في أفيائها ألفاظ الحرية والسيادة والاستقلال ، فوجدنا أن هذه الألفاظ تدل على معان جديدة أخذت تدخل أذهاننا ولم يكن لنا بها عهد من قبل ، وتبيّن أن هذه المعاني قد خرجت عن البساطة فكانت تستلزم الجهد الجاهد والنضال الشديد وربما صحب هذا الجهد وهذا النضال شيء من سفك الدم ، فالتفتنا حينئذ الى أدبنا لنعبّر عن هذه الحياة الجديدة التي واجهناها فرأينا أن العناية بالألفاظ وحدها لا تقوم بما نريد ، فأخذنا نبحث عن الأفكار ، أخذنا نبحث عن الصورة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نفسها فضلاً عن ألوانها أو صيغها أو قوالبها ، فخرج حينئذ أدبنا عن بساطته خروج حياتنا نفسها عن هذه البساطة ودخل في أفق جديد ، فاستحكم الانسجام بين هذه الحياة الجديدة وهذا الأدب الجديد الذي استفاض في صحفنا في صورة المقال ، فالحياة اشتدت أضاحيها واستلزمت هذه الشدة قوالب شديدة فكان المقال رمز الحياة الجديدة ، رمز شدتها وجهدها ونضالها .

هذه مرحلة ثانية من مراحل حياتي الأدبية رأيت فيها تشابك الأدب والحياة فالأدب يصدر عن المجتمع والمجتمع يصدر عن الأدب ، فهما متصلان لا يكاد الواحد ينفصل عن الآخر .

ولكن لماذا مارست المقال ولم أمارس القصة ، فكثيراً ما سألوني هذا السؤال .

إن العصر الذي فتحت عيني عليه وأوله سنة ١٩١٨ أي أواخر الحرب الكبرى الأولى كان عصر نضال ، لقد أخذ العرب على الحلفاء عهوداً ومواثيق أن يعترفوا لهم باستقلال بلادهم بعد الحرب ، فلما انقضت الحرب نقض الحلفاء عهودهم ومواثيقهم ولماذا لم ينقضوها وقد انتفعوا بثورة العرب الكبرى في خلال الحرب فلم يبق لهم انتفاع بهم بعد الحرب ، لقد عصروا البرتقالة وطرحوا قشرها فكان على رجال الفكر والأدب في بلاد العرب أن يجاهدوا بأقلامهم في سبيل حرية البلاد وسيادتها واستقلالها ولا ريب في أن المقال كان أبسط الأنواع الأدبية ، فهو يدخل القلوب دون كثير من إعمال الروية ، فليس فيه تحليل لعاطفة أو لفكرة أو لوضع من أوضاع المجتمع وإنما يواجه الفكرة والعاطفة مواجهة ، فلا يصعب على الأذهان أن تدرك أسراره لأول وهلة ، كان همّ المقال في بعض الأحيان استثارة العامة والخاصة حتى تحذر الغرب وغوائله وكان همّه في بعض الأوقات التهويش حتى يستفحل في القلوب بغض الرجال الذين مدوا أيديهم الى الدولة المنتدبة وكراهيتهم ، كما كان همه في بعض الأحوال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غرس الأفكار الوطنية والقومية واذا أردت أن أتبسط في غايات المقال طال بي التبسط وقد أستطيع أن ألخص هذه الغايات في أن المقال كان يواجه الحياة الواقعة مواجهة بسيطة لا شيء فيها من زخارف الفن أو من دقائق التحليل أو الوصف وما شابه ذلك ، حسبه أن يكون البيان فيه واضحاً قوياً وحسبه أن تكون الفكرة فيه ظاهرة حتى يعمل عمله في القلوب .

فالقصة في مثل هذه الحالة التي وصفتها وأوجزت في وصفها لم يكن لها أثر والكاتب الذي انصرف الى الرواية مع اعتنائه بالمقال في جريدته إنما هو معروف الأرناؤوط صاحب رواية سيد قريش وأخواتها من الروايات التي خلّدت أعاظم رجال التاريخ ، كان المؤلف رحمه الله مرح الظاهر والباطن ، فانعكس مرحه على بيانه ، فطفحت رواياته بالصور الشعرية ، فقد كان يقرأ كثيراً كتب شاتوبريان ولوتي وشعر فيني وموسه .

فاذا كنت لم أمارس القصة فالذنب ليس بذنبي وانما هو ذنب العصر الذي عشت فيه وذنب البيئة التي نشأت فيها ولمّا تقدم هذا العصر واشتدت مشاكله وكثرت مخالطتنا لأدب الافرنجة نشأت القصة ، فلم يبق العصر عصر جهاد وحده وإنما أصبح عصر مشاكل اجتماعية لا غنى عن حلها .

كان بعض الأئمة في أول أيامي وفي العصر الذي سبقني ينفرون عن الرواية والقصة وحسبي أن أذكر منهم الشدياق وكردعلي .

أما الأول فقد كان يرى في الرواية سفسفة وإتياناً بالغث وأما الثاني فقد كان يرى في القصة محض الاختلاق .

لا شك في أن هذين الإمامين لم يألفا الرواية والقصة ولم ينظرا اليهما من زاوية هذين النوعين الأدبيين فالرواية ليس من الضروري أن تكون سفسفة انها قد اتسعت للتاريخ ودراسة الأهواء ووصف الأخلاق وتحليل العواطف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما اتسعت للطبيعة وواقع الحياة والمثل الأعلى ، فالرواية إنما هي دراسة فيها صراع الأخلاق في بيئة واحدة أو في بيئات .

كما ان القصة ليس من الضروري أن تكون اختلاقاً ، فقد تستنبط حوادثها من الحياة ، فيجهد القاص في التفتيش عن أصول هذه الحوادث وفي تصور عواقبها ثم في التفتيش عن تأثيرها في رجال آخرين وفي بعض الأوقات في المجتمع وقد تكون موضوعات القصة قانوناً من القوانين أو عادة من العادات أو حالة من الحالات ، فيجهد القاص في تصور ما يمكن أن يعمله هذا القانون وهذه العادة وهذه الحالة في أشخاص يخترعهم ذهنه اختراعاً .

وعلى هذا فقد اختلفت موضوعات القصة والرواية عن موضوعات المقال ، لقد انتقلت الحياة من وجه الى وجه فانتقلت الأفكار من وجه الى وجه ، فاذا كان المقال صورة الحياة البسيطة فقد أصبحت القصة والرواية صورة الحياة المعقدة في أكثر نواحيها ولا بد في مثل هذا التعقيد من حل ووصف ولا بد في هذا الحل والوصف من أثر الفن وهنا تظهر مهارة صاحب القصة والرواية .

اني لا أريد التعرض للقصة والرواية في بلادنا فهذا خارج عن موضوعي ، اني أروي قصتي الأدبية وأصف الأطوار التي تقلب فيها الأدب ، إلا أني أغتنم الفرصة للكلام على ناحية واحدة من القصة بحسب ما شعرت به وأنا أطالع بعض القصص .

لقد قرأت قصة من أربعين سنة عنوانها : طير القمر ، أرسلها صاحبها الى مجلة Les Annales في باريز ولم يذكر اسمه ولم يوسط أحداً في نشرها وقد أعجبت هذه القصة أصحاب المجلة بلطفها ورقتها فنشروها بعد أن مهدوا لها بمقدمة وجيزة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما أظن أن أحداً يطالبني بتلخيصها لأن روعتها قد تذهب بهذا التلخيص إلا أنه لا مناص لي من الإشارة الى موضوعها : رجل من رجال المعهد في باريز ، عضو في جمعيات علمية كثيرة ، مختص بتاريخ آثار مصر وقع في حب راقصة من الراقصات ، أما كيف كان يعيش هذا العالم وكيف وقع في حب الراقصة وما هي الأحاديث التي كان يساقطها إياها في الاجتماع فهذا روح القصة وإذا أمكن نقل الروح من رجل الى رجل أمكن نقل روح هذه القصة من مقامها الى هذا المقام .

تصور القاص موضوعه وحبك أطرافه أشد حبك ، وقد أشفق على بطله العالم في تضاعيف القصة فلم يشأ أن يجعله هزأة وإنما قدّر علمه ووقّر شيخوخته وجاراه في حبه حتى آخر القصة إلا أنه لم يفارقه في الخاتمة دون أن يسخر منه ألطف سخرية وأشدها وقد جعل هذه السخرية على فم بائعة من بائعات الزهر ، فقد حدث لهذه الراقصة حادث فعلم الشيخ بهذا الحادث فعادها في بيتها وهي مستلقاة على الفراش ولمّا ودّعها وانحدر الى باب البيت صادف بائعة زهر في دكّان فطلب اليها أن تنتخب كل يوم باقة من الأزاهير وأن تقدمها للراقصة وتكتب عليها هذه الكلمات : شاب معجب مخلص . ودفع اليها الثمن فوافقته البائعة على مراده ثم صحبته الى باب الدكّان وهي تلمح إلى ظهره المتقوّس وقبعته المثنية فهزت كتفيها وجمجمت في قفاه : رح يا مجنون !

القصة من أولها الى آخرها تصوّر عشق الشيوخ من العلماء ومن هم في طبقتهم ولمّا كان الحب كله جنوناً كان حبّ الشيوخ أشد هذا الجنون ، لقد جمعت هذه القصة كثيراً من الفن وهذا ما حمل أصحاب مجلة Les Annales على أن ينشروها وهم من كبار الأدباء إلا أن المهارة كل المهارة في الكلمة الأخيرة ، في هذه الكلمة التي قذفت بها بائعة الزهر ، فهي سرّ القصة ، هي لحمها ودمها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعظمها ، فليست عبقرية القصة في الموضوع فالموضوعات كثيرة وليست في الطول والقصر ، وإنما عبقرية القصة في روح صاحبها ، وكما أن الشاعر يجعل من الأزاهير ربيعاً طلقاً يكاد يتكلم وذلك بلفظة واحدة ، كذلك القاص يجعل من قصته روعة بكلمة واحدة تلخص القصة أبلغ تلخيص .

* * *

اذا كنت لم أمارس القصة ومارست المقال للأسباب التي بسطتها فقد انصرفت الى نوع آخر من الأدب لأن الحياة انتقلت الى مهب جديد ، فانتقلت معها الى طور جديد ، ماهو هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه ، لقد اتصلت بأدب الافرنجة بعد المرحلة الثانية التي أشرت اليها فوقفت على أساليبهم في دراسة الأدب وتدريسه ، كنا في هذه الدراسة وهذا التدريس قبل اتصالنا بأدب الغرب نعنى بالبحث عن ميلاد الشاعر ووفاته ، وعن جزالة ألفاظه ورقتها وعن أشباه هذه الأمور ، فلما وقع الينا أدب الافرنجة وجدنا أن أهم عنصر من عناصر الدراسة والتدريس في الأدب إنما هو التحليل ، انهم لا يقفون في الأدب عند ألفاظ بأعيانها أو عند ظواهر الأمور ولكنهم يتغلغلون في البواطن ، فالدراسة عبارة عن الكشف عن نفوس غامضة أو واضحة ، عن عواطف جليلة أو دقيقة ، عن أسرار ظاهرة أو باطنة ، إنهم يتخذون النص سبيلاً الى معرفة الأشخاص ، ولا يهملون في هذا كله العناية بأمور الفن في دراسة النص .

كل هذا كنا نجهله في أدبنا ، أو كنت أنا أجهله حتى لا أظلم أحداً ، فلما درست المتنبي والجاحظ في أول كلية آداب أنشئت في هذه البلاد وذلك سنة ١٩٢٩ لجأت الى أساليب الافرنجة في الدراسة والتدريس .

الى أي شيء أفضت بنا هذه الأساليب ، الى أشياء كثيرة لا يتسع لها مجال هذا الحديث أو هذه القصة ، ولكن لا مندوحة لي عن ذكر يسير من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الأشياء ؛ كنت أحفظ من المتنبي أبياتاً أعني قبل كل شيء بألفاظها وظواهر معانيها ، ولكني هذه المرة وجدت أن ورآء هذه الألفاظ وهذه المعاني عالماً ملآن من الأسرار ، لقد ظلمنا المتنبي كثيراً ، وسنظلمه كثيراً ، لأنا نظرنا الى مجرد أماديحه ولم نستخرج الأسرار من ورآء هذه الأماديح ، لقد قرأت في كتب الافرنجة انه لولا « هوميروس » لما استطاع اليونان من بعده أن يغلبوا الفرس واذا أضحى اليونان في القديم أكبر رجال البر في العالم فمرد بعض هذا الأمر الى عبقريتهم في الشعر ، لقد نمّى الشعراء حوادثهم في شعر رائع نشأ عن الأساطير ثم نشأ تاريخ اليونان نفسه عن هذا الشعر ، فان الأسماء والصور والرموز والتقاليد التي ألّف بها شعراء اليونان بين قبائلهم هي التي خلقت اتحاد اليونانيين ، فلما قرأت شعر المتنبي لم أنظر الى أماديحه في سيف الدولة إلا سبيلاً الى خلق البطولات في العرب فلم أهتم بتشبيهاته وإن غلا فيها وباستعاراته وإن اشتط في بعضها وإنما اهتممت بهذه الروح الجديدة التي فطنت اليها في شعره ، روح البطولة .

وكما اهتديت في دراسة المتنبي إلى أشياء كثيرة في جملتها تصوير البطولة فكذلك اهتديت في دراسة الجاحظ الى أشياء وافرة ، إذا فتحنا كتب الأدب وجدنا نوادر الجاحظ ولم نجد من نبّه في هذه الكتب قديمها وحديثها على علم الجاحظ وعلى فلسفته في هذا العلم ، لم نجد من نبّه على لجوئه الى الاستعانة بالحواس في معرفة الحقيقة ثم على عدوله عن هذه الطريقة التي تخطئ فيها الحواس الى طريقة الشك ، فقد اتخذ الشك سبيلاً الى اليقين ، لم نجد في كتب الأدب من نبّه على هذا كله ووازن بين طريقة الجاحظ وبين طريقة « باكون » و « ديكارت » ، وهكذا كنت أنتقل في الأدب من طور الى طور ومن أفق الى أفق لأن الحياة كانت تنتقل من طور الى طور ومن أفق الى أفق ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من البساطة في ظواهرها والانصراف الى أكلها وشربها ولبسها ، الى الجهاد في سبيل حريتها وسيادتها واستقلالها ، من عرض الدراسة في الأدب الى جوهر هذه الدراسة .

وهذا دليل آخر قام في ذهني على أن الأدب والحياة متلازمان ، لقد ظلّ الأدب قبل هذه المرحلة الثالثة من حياتي الأدبية جامداً ، جافاً ، فلما اتصلنا بأدب الافرنجة صار الجمود الى الحركة والجفاف الى الطراوة .

ما أظن أن قصتي الأدبية تتم إذا أنا لم أقحم فيها الكلام على الشعر ، لماذا مارست الشعر وكيف مارسته ، هذا أمر لا أزال أجهله ، وكل ما يخطر ببالي في هذا الباب أني لما تركت المدرسة فاجأتنا الحرب الكبرى الأولى فجاش الشعر في صدري وأنا على غير استعداد له ، لأنه يحتاج الى أشياء كثيرة غير الأشياء التي تهبها الطبيعة ، يحتاج الى امتزاج بشعر الكبار من الشعراء حتى يألف الإنسان أساليبهم وحتى يتصرف في صورهم ولم يتيسر لي في أول الأمر شيء من ذلك ، والعادة ان الشعر يجيش في صدر صاحبه لأمور تدخل فيها عواطفه الخاصّة ولكن الشعر لما خطر ببالي كان يتصل بالحرب وحوادثها ، فعملت أبياتاً أو قصيدة ولست أخجل من أن أقرّ في هذا المقام بأنها أسخف ما يعمله إنسان من الشعر ومع هذا فإني لآسف كل الأسف على ضياعها لأنها ذكرى كريمة ، ثم انصرفت بعد ذلك الى مطالعة شعر المتقدمين فألفت بعض الألفة مناحيهم حتى اذا همدت نيران الحرب احتاجت البيئة الى تأجيج نيران ثانية ، نيران الوطنية ، فسيطرت البيئة عليّ فلم أستطع التملص من تأثيرها ، فجربت في شعري على لهيب هذه النيران ولمّا نشأ شعراء شباب وأخذوا يصورون في شعرهم ما يختلج في قلوبهم من مختلف العواطف لم يستطع هذا التيار أن يجرفني ، فبقيت في الزاوية التي قبعت فيها ولا أزال في هذه الزاوية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فاني أعتقد أن بيئتنا اذا احتاجت الى النزعات الوطنية في الماضي فانها في هذا الحاضر أشد حاجة اليها ، فكأن الوطنية والقومية من خصائص أمتنا ولا شك في أن من هذه النزعات إحياء ذكرى المتقدمين والمتأخرين من فحول شعرائنا ورجال وطنيتنا ، فاذا أنا عملت شعراً في المتنبي والمعري وأبي تمام وشوقي ومطران فإني أخضع في هذا الشعر لبواعث قومية لأن شعراءنا الكبار هم الذين ولّدوا على اختلاف العصور روح القومية في الأمة ، فلا أرى غرابة والحالة على نحو ما وصفت أن أبدأ بالشعر القومي وأن أستمر فيه حتى هذه الأيام ، على أن الشعر قد خلق لأشياء كثيرة ، انه يعبّر عن أفراح البشرية وأحزانها ، عن آلامها ولذاتها ، انه صدى النفوس التي تذوق مرارة الفقر والمرض والجهل انه عزاء البشرية ، إلا أن غايات الشعر تختلف على اختلاف بيئاته ، وبيئتنا على ما يظهر لا تزال تأنس بالشعر القومي ، فإذا أقيم من حين الى آخر مهرجان للشعر فان الشاعر الذي يدوّي شعره في النفوس انما هو الشاعر الذي يتغنّى بآلام الأمة وعلى رأس هذه الآلام نكبة فلسطين .

إني أعتقد أني بعد أن قصصت ما قصصت من حوادث أدبي قد انتهيت الى اشتباك هذه الحوادث ، ويتلخص هذا الاشتباك في المعركة التي تدور رحاها في الأدب من ثلاثين سنة وأكثر ، وقد وقع مثل هذه المعركة في أدبنا في العصور الماضية بين مَن كانوا يسمونهم المتقدمين والمتأخرين أو الأوائل والأواخر ثم غُيّر هذا الاسم في عصرنا فدارت المعركة بين القديم والحديث ثم أطلق على رجال المعركة اسم الشيوخ والشباب وأخيراً اتفقوا والحمد لله على أن يسموها : معركة التقدميين والرجعيين .

لا أرى بأساً بأن أرجع بضع دقائق الى الماضي البعيد حتى نرى رأي رجال أدبنا في هذا النوع من الحرب الهادئة التي لا تسفك فيها دماء ، ولا تطير فيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جماجم ، واني لأكتفي بأقوال رجل واحد في هذا المعنى فان قوله يلخص ثورة أدباء الماضي على أدب المتقدمين ، قال أبو الحسين أحمد بن فارس :

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادّة المتقدم ، وله تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً وتدع قول الآخر : كم ترك الأول للآخر ، وهل الدنيا إلا أزمان ، ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأوهام ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ، وله لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ويرى في كل ذلك رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوادر الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، أو ما علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، وله حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ، وهل حبيب إلا واحد من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم وأهل النحو في مصنفاتهم والنظار في موضوعاتهم وأرباب الصناعات في صناعاتهم ولم يجز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ، أمر لا يدرك ولا يدرى قدره ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ، ولذهب أدب غزير ، ولضلّت أفهام ثاقبة ولكلّت ألسن لسنة ، ولما وشى أحد خطابه ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولملّت الأسماع كل مردّد مكرر وللفظت القلوب كل مرجّع ممضغ » .

أظن أنه لو اجتمع كل المجددين في هذا العصر وأحبوا أن يأتوا ببراهين قاطعة على ضرورة تجديدهم لما جاءوا بصفحة أبلغ من هذه الصفحة ، لقد استشهدت بها من ثلاثين سنة وقلت في التعليق عليها :

إن عقل البشر ينبسط أفقه من عصر الى عصر ، ويتسع مجاله من دهر الى دهر ، فيولد في انبساط هذا الأفق واتساع هذا المجال ألفاظاً ومعاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم تك من قبل ، وينشئ الأدب لهذه المعاني أساليب طريفة ، ويفرغها في قوالب حديثة ، وعلى هذا يتنقل الأدب من طور الى طور ويدرج من حال الى حال على تعاقب الأحقاب ولو ثبت هذا الأدب على أساليب محدودة لأتى عليه حين من الدهر لم يك فيه شيئاً ، لو تملص هذا الأدب من عوامل الحضارات والثقافات لما وسع شيئاً ؛ إننا نجد مذاهب تولد ومذاهب تموت وألفاظاً تبعث وأساليب تعيش وأساليب تنقرض . ما أعظم انقلاب الأفكار !

وها أنذا أعود بعد ثلاثين سنة الى قولي نفسه فلا أعدل منه شيئاً ، فلست أرى في المعركة التي تشتد حيناً وتخف حيناً بين أصحابها خروجاً على الطبيعة أو انحرافاً عن سنتها فهي تقع في كل العصور وفي كل الأمم فقد وقع مثلها في الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر وكان اسمها معركة المتقدمين والمحدثين ؛ كانت أماني المحدثين أن يكون لمعاصريهم الحق الصريح في أن يعتقدوا من حيث المبدأ أنهم ليسوا على درجات أحط من درجات كتّاب القديم .

لا بأس بهذا كله ، ان فكر البشر لا يثبت على حال فهو كريشة في مهب الريح فقد ينشأ مذهب في عصر من العصور ثم يأتي عصر فيعفي عليه ويطلع بمذهب جديد ، فالتفكير الذي يظل على حال واحدة على اختلاف العصور انما مثله كمثل الماء الراكد في المستنقع .

والتفكير في بلادنا لم يثبت على حال فقد اتصلنا بالغرب اتصالاً وثيقاً فلم نستطع إن نتملص من بعض آثاره ولم نستطع أن نهرب من بعض مذاهبه في الأدب وغير الأدب ، إني أمر على أسماء هذه المذاهب مروراً بحسب ما اصطلحوا عليها فهناك ما سموه الإتباعية والرومانسية والواقعية والرمزية وما فوق الواقعية والوجودية المعاصرة والواقعية الحديثة والأدب الهادف ... أسماء فيها الخير والبركة والحمد لله ، ولسنا ندري ما يطلع علينا المستقبل القريب أو البعيد من أسماء جديدة لمذاهب جديدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كل هذا لا بأس به وإنما البأس كل البأس بتغيير روح اللغة وعبقريتها في ولادة المذاهب الجديدة ونشوئها . إن أحمد بن فارس وهو حامل لواء المجددين في القديم لما ثار ثورته العنيفة على المتقدمين لم يثر مثل هذه الثورة على لغة العرب ، لقد حافظ على هذه اللغة ، حافظ على طبعها وذوقها وكان يقدس هذا الطبع وهذا الذوق ، هذا هو الفرق بين تجديده وتجديدنا ، إننا نجدد ولكن تجديدنا لا هو شرقي ولا هو غربي ، لا هو عربي ولا هو أعجمي ، لقد نغرق في مذاهب الافرنجة فننحرف عن مذاهب لغتنا ولا نفطن الى أسرار الفن فيها ، فنتيه في بيداء لا نعرف أولها ولا آخرها وإذا انحرفنا عن هذه المذاهب ضعنا وضاعت لغتنا ، اننا نعيش في عصر تكاد القومية تكون فيه شعارنا ، وأظن أن اللغة إنما هي شعار هذه القومية ، فاذا أضعنا روحها وعبقريتها بين مهاب المذاهب الحديثة أو اذا ضعنا نحن في تضاعيف هذه المذاهب فماذا يبقى لنا من القومية .

لقد ثرنا في أدبنا على أشياء كثيرة ولا سيما على الشعر فقلنا ان شعر المتقدمين لا يصلح لروح العصر الذي نعيش فيه ، ولا شك في أن لكل عصر روحاً خاصة به ، فالشعر الذي قيل في فيافي البدو لا يقال في قصور الحضر ، فان شعر سقط اللوى والدخول وحومل لا يناسب قصور بني العباس في بغداد وبني أمية في الأندلس ، ولهذا نجد من عصر الى عصر مجددين في الشعر ولقد شهدت عصورنا كثيراً من هؤلاء المجددين وعلى رأسهم أبو تمام ، لكن شعره الجديد لم يقتبس روحه من الهند أو فارس أو الإغريق ، إنه شعر عربي قبل كل شيء لقد خلع على اللغة ثوباً قشيباً لا عهد لها به من قبل ، فقرن ألفاظاً بألفاظ لم يكن بينها تقارن وألف بين صور وصور لم يكن بينها تآلف ، إلا أنه جرى على طبع اللغة وذوقها فجاء شعره عربياً حراً نقياً ، لقد تصرف في ألفاظ اللغة وأساليب مجازها تصرفاً عبقرياً ، فاذا أضاف لفظاً الى لفظ فلا نشعر بتنافر اللفظين واذا مزج صورة بصورة فلا نحس بتباعد الصورتين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا ما أفهمه من روح التجديد وإذا كنا نعيش في عصر يرى فيه بعضهم ان شعر المتقدمين لا يصلح لروحه فاني أول من ينتظر الشعر الجديد لأومن به إلا أني لا أومن إلا إذا وجدت في قلائده ما يفوق قلائد المتقدمين ، إن الأصل في الفن كله ، قديمه وحديثه ، إنما هو الابتداع ، أما إذا كان الشعر الجديد ضرباً من الألغاز والأحاجي فأظن أن العقول غير مستعدة للتعب في فك هذه الألغاز وهذه الأحاجي ، حسبها ما تعانيه من متاعب العصر فهي لا تحتاج الى متاعب ثانية .

على أني إذا أملت شيئاً فاني آمل أن لا تباعد هذه المعركة التي رمزت اليها بين رجال المذهبين ، إن الأدب لم يخلق للتبعيد وانما خلق للتقريب ، خلق لجمع الشتات وغرس المحبة وما أظن أن هذه المسافة بين من نسميه الشيوخ والشباب مترامية الأطراف ، انها مسافة مصطنعة لا ينبغي لها أن تمتد ، وبين المتقدمين والمتأخرين أو الأوائل والأواخر أو القديم والحديث أو الشيوخ والشباب أو التقدميين والرجعيين صلة قوية الأسباب لا يستطيع أحد أن يخرمها ، إنها صلة اللغة ، صلة الذوق والشعور والفكر ، وقد تختلف الأذواق ويتباين الشعور ويتباعد الفكر ولكن اللغة واحدة ، فهي التي تؤلف بين المختلفين وتقرب بين المتباعدين ، فليفرغ الفكر والذوق والشعور في صيغ مختلفة ، الأصل في هذا كله إنما هو روح اللغة ، فاذا حافظنا على طبع هذه اللغة محافظة المتقدمين وآمنا بذوقها ايمانهم وأخلصنا المحبة لعبقريتها إخلاصهم فلا خوف علينا يومئذ .

أما الخلاف نفسه بين المذهبين فأظن أنه خلاف في الألفاظ لا في المعاني ، لأن ما نسميه قديماً في عصرنا هذا كان جديداً بالنسبة الى العصر الذي ظهر فيه وما نسميه جديداً في أيامنا هذه سيصبح قديماً بالنظر إلى الأيام الآتية فإن الحياة في تطور مستمر ، لا يبقى فيها شيء على وضعه ، فالتفكير قد يتبدل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والموضوعات قد تتبدل ، والاتجاه قد يتبدل ، والشيء الوحيد الثابت الذي لا يجوز له أن يفرق في مهاب التطور إنما هو روح اللغة فاللغة نفسها قد تتبدل من عصر الى عصر وإنما روحها تظل عربية حرة نقية على ممر العصور .

وأخيراً سواء أعالجنا المقال أم عالجنا القصة والرواية وسواء أكنا نمارس الشعر القومي أم كنا نمارس الشعر الغنائي ، وسواء أكنا من المتقدمين أم كنا من المتأخرين ؛ إن الأدب في هذه الحالات كلها لا يعيش ولا تتفتح أزاهيره إلا في ظلال الحرية .

من خمس وثلاثين سنة اقتنيت كتاباً اسمه : الكاتب العام ، صاحبه من رجال الأكاديمية في باريز ، عدت من أسابيع الى قراءة فصول هذا الكتاب ، فمررت بهذه الفكرة في أحد فصوله : لقد اقترح ناد من أندية الكتاب على جمعية الأمم أن تنشيء جائزة لمن يعمل كتاباً ذا قيمة رفيعة ، يبث فيه مؤلفه أفكاراً عامة تنتفع بها كل الأمم كالإيمان بالرجل والكمال الخلقي والعقلي ورفاهية البشر .

لقد رأى مؤلف الكاتب في أمثال هذه الجمل لغة رفيعة من حيث المبدأ إلا أن عواقبها غير محمودة لأن إجبار الكاتب في رأيه على تضمين كتابه أفكاراً تملى عليه إملاء إنما هو تقييد لوحيه وإلهامه ، ولم أستشهد بكلام هذا الكاتب وأختم به قصتي الأدبية إلا لأبين أن تقييد الحرية في الأدب إنما هو تقييد للعبقرية حتى ولو كان هذا التقييد في موضوعات خلقية أو إنسانية ، إن عاطفة الشاعر لا تتدفق إلا في أفق ملآن من الحرية وكذلك عبقرية الكاتب ، فالتقييد يقضي على عواطف الشعراء وعبقريات الكتاب .

ألفت في القاهرة حديقة الحيوان فكلما اغتنمت فرصة ذهبت اليها وراقبت أنواع الحيوان ، ولقد وقفت في سفرتي الأخيرة على باب قفص فيه أسد ولبوءة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان الأسد نائماً وكانت اللبوءة تذهب وتجيء في القفص وعليها آثار الضجر والقلق ، فلما استفاق الأسد من نومه انحدر عن مكانه وأخذ يدور في القفص فدنت منه اللبوءة ووضعت شفتيها على شفتيه ، فازور عنها وأخذ يدور في قفصه فكأن هذا الأسد قد أحس بحبسه ، فكاد هذا الإحساس يجفف كل عاطفة فيه ، فلم يكفه أن يقدموا إليه طعامه كل يوم وإنما يطمح الى حريته ، إلى جولاته في الغاب ، إلى زئيره في أنحاء الدوح ، هذا الزئير الذي يفصح به عن جبروته وعظمته .

لقد قابلت بين هذا الأسد وهو في قفصه وبين ذلك الأسد الذي وصفه المتنبي وقال فيه :

ورد إذا ورد البحيرة شاربا ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه إلا ظنتها تحت الدجى نار الفريق حلولا
في وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرته إلى بأفوخه حتى تصير لرأسه إكليلا
وتظنه مما يزجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولا

قابلت بين هذين الأسدين ، أسد مثقل بقيوده وأسد زاه بحريته ، يهز الغاب بزئيره فعرفت حينئذٍ جناية الأقفاص التي تخنق كل زئير وتطفئ كل نور وتذل كل كبرياء !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net